الرسول ينتزع المبادأة من يد أعدائه

روى الإمام أحمد والبخارى عن سليمان بن صُرَد والبزار برجال ثقات ، وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهم ، والبيهقى عن قتادة رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال حين أجلى الله تعالى عنه الأحزاب : الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم[1] .

قرار خطير ونقطة تحول تاريخية :

هذا الحديث الشريف ، قرار خطير فى تاريخ الإسلام يستحق أن نقف أمامه بكثير من التأمل والتدبر . لما ينطوى عليه وما ترتب عليه من دروس تنفع المسلمين وتنير لهم الطريق للخروج من واقعهم الأليم .. ﴿وكُلاً نَقُصُّ عليكَ من أنباء الرسُل ما نُثبِّتُ به فؤادَكَ وجاءكَ فى هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنينَ﴾

[هود : ١٢٠]

---

(١) محمد بن يوسف الصالحى الشامى ، سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد جـ ٤ - ٥٤٩.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

[النساء : ٢٦]

قد كان هذا القرار نقطة تحول بارزة فى صراع المسلمين مع هم فى عصر النبوة ، انتقلت فيها المبادأة[1] إلى أيديهم لأول فى تاريخ هذا الصراع ، وترتب على هذا الانتقال آثار بعيدة ، .. فطوال الفترة التى قضوها فى المدينة من يوم الهجرة إلى ل غزوة الخندق ، كانوا يتلقون هجمات أعدائهم ويواجهونها بارك دفاعية» كان أبرزها غزوة بدر فى السنة الثانية للهجرة . فى السنة الثالثة : ثم كانت غزوة الخندق فى السنة الخامسة واجهوا فيها هجوم قريش والقبائل العربية واليهود .. فقرار ل القائد ﷺ بعد غزوة الخندق (الأحزاب) : «الآن نغزوهم يغزوننا ، نحن نسير إليهم» ، معناه أن يتحول المسلمون من ع إلى الهجوم ، وأن يسيروا إلى أعدائهم بدلاً من البقاء إنتظارًا اتهم ، وبعبارة أخرى فإن معنى القرار أن يتحول المسلمون من «رد الفعل» إلى «الفعل» .. ولابد هنا من أن نصحح ما فى الأذهان من خطأ فى فهم معنى «الهجوم» على أنه يعنى العدوان

) المبادأة (أو المبادرة) معناها باختصار حرية العمل ، والذى يملك المبادأة خصمه من حرية العمل ، ويحصر أعماله فى نطاق رد الفعل وإحراز المبادأة م عوامل النصر والنجاح فى الحرب والسياسة على حد سواء .

أو الاغتصاب ، فالهجوم شكل من أشكال العمليات الحربية تت
فيه القوة إلى العدو وتوجه ضربتها إليه فى مواقعه ، وطبيعة ا
تجعل الهجوم شكلاً من الأشكال الضرورية لتحقيق الأهداف
فى إطار العمليات الدفاعية ، ومن الأقوال الشهيرة فى هذا المج
«الهجوم خير وسيلة للدفاع» .

فليس من صواب الرأى أن نعتبر الهجوم مرادفًا للعدوان أو من
على نواياه ، ولقد أوضح لنا الرسول القائد ﷺ هذا المعنى وأكد
معارك عصر النبوة فكل الغزوات والسرايا التى تحرك فيها المسلمو
عدوهم ليوجهوا إليه ضرباتهم هى «عمليات هجومية» تمت فى
«استراتيجية دفاعية» تستهدف الدفاع عن الدعوة وحرية التدين ، ول
العدوان أو الاغتصاب أو القهر هدفًا من أهدافها ، وإنما كانت أه
حقًا وعدلاً ودفعًا للاعتداء وإعلاء لكلمة الله .

أسس هذا التحول التاريخى :

وخطورة هذا القرار التاريخى وما ترتب على تنفيذه من
تدعونا إلى محاولة تقصى الأسس التى بنى عليها ، فإن تنفيذ
القرار ينطوى على مواجهة تحديات كبيرة أهمها أن المسلمي
عملياتهم للمقبلة ضد قريش سوف يتركون المدينة قاعدتهم الرئي
ويسيرون أربعمائة كيلو متر فى أرض أقل ما يقال فيها أنها
غير صديقة» ، ثم يتجهون إلى مكة قاعدة قريش الرئيسية

ما فيها من قوة بشرية بأكبر حشد ، وبكل ما فيها من «حوافز معنوية» لأهلها للدفاع عنها فى معركة تعد «معركة مصير» بالنسبة إليهم .

وليس من شك فى أن الرسول ﷺ كان مدركا لحجم هذه التحديات التى لم يسبق أن واجه المسلمون مثلها ، – ومع ذلك – كان «مطمئنًا» إلى إتخاذ قراره بكل ما له من عواقب ونتائج .

والواقع أن مما يعين على استخلاص أسس ذلك القرار ، استقراء تطور لأحداث خلال السنوات الخمس الأولى للهجرة :

شل قريش فى تحقيق أهدافها :

ففى خلال تلك الفترة كانت قريش تملك زمام المبادأة ، لكنها لم تستطع تحقيق هدفها الأساسى وهو القضاء على الإسلام أو القضاء على المسلمين فى موطنهم الجديد ، لقد قاتلت المسلمين فى عدة معارك ، منها بدر وأحد والخندق بلا جدوى .

حتى فى تلك الغزوة الأخيرة (الخندق) التى أرادت لها أن تكون حاسمة ، فحشدت لها كل ما أمكنها حشده من قوى أخرى إلى جانب قريش متمثلة فى القبائل العربية واليهود ، لم تُجْدِها شيئًا .. والذى يتصور قريشًا – إزاء هذا الفشل – سوف تضعف عزيمتها ، ويفتر استعدادها دة إلى التجربة مرة أخرى .

وهنا تظهر عبقرية الرسول ﷺ فى فهمه لطبائع البشر ، وفراسته فى «رصد ملامح الضعف» فى قوة خصمه ، وسرعته الفائقة فى إتخاذ القرار الصحيح فى الوقت الملائم تماما لتوجيه «الضربة القاضية» .. الآن نغزوهم ، ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم !!

الضغط الاقتصادى على قريش :

وخلال تلك الفترة نجح المسلمون فى فرض الحصار الاقتصادى ع قريش بالسيطرة على طريق التجارة إلى الشام ، ثم على طريق العراق الذ تحولت إليه ، فبعد أن أصبح طريق الشام محفوفًا بالمخاطر ، تحولت قريـ إلى طريق العراق ، فقد قال صفوان بن أميه : «إن محمدًا وأصحابه عوروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرح الساحل وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندرى نسلك ، وإن أقمنا فى دارنا هذه ، أكلنا رءوس أموالنا ، فلم يكن من بقاء ، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف وإلى الحب فى الشتاء» فأشار عليه الأسود بن عبد المطلب أن يتخذ طريق العراق ففعل ، وتجهز من البضائع والفضة بما قيمته مائة ألف درهم ، غير الرسول ﷺ بعث زيد بن حارثة فى مائة راكب فاستولى على القـ وهى فى طريقها عند ماء يقال له (القَرَدَة) من مياه نجد ، وهكذا لم أمام قريش إلا التجارة مع الحبشة ، وكان لذلك أسوأ الأثر على حـ الاقتصادية .

فلا بد وأن يكون لهذا الضغط الاقتصادى أثر كبير فى دعوة قريش إلى أن «تعيد النظر فى موقفها» ضد المسلمين ، فيكون الضغط العسكرى الذى يتحقق بعد انتزاع المبادأة ، «دافعًا» لها أكثر وأكثر فى هذا الاتجاه .

تأمين قاعدة المدينة :

لقد أصبحت المدينة خلال تلك الفترة «قاعدة أمينة» يستطيع الرسول ﷺ أن «يتركها» خلفه ، ويبعد عنها ما شاء من مسافات ، «ويغيب» عنها ما شاء من زمن ، ثم «يعود» إليها ، ليجدها – كما تركها – صلبة قوية أمينة .

والواقع أن تأمين المدينة كقاعدة للإسلام ، بدأ منذ اللحظة الأولى لوصول المسلمين إليها بعد الهجرة ، فكان أول ما عمد إليه الرسول القائد ﷺ «إقامة جبهة داخلية صلبة» وذلك بجمع صفوف المسلمين وتوحيد جبهتهم وإيجاد رابطة قوية بينهم (توحيد صف الأنصار من أوس وخزرج ، والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين) ثم بتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لكافة سكان المدينة من المسلمين والمشركين واليهود بمقتضى ميثاق المدينة .. كل ذلك تأمين للقاعدة «من الداخل» ..

ثم كان تأمين المدينة «من الخارج» بعقد المعاهدات والاتفاقات مع مختلف القبائل العربية ، فهذه الاتفاقات – فضلا عن أنها كفلت حرية الدعوة – فقد كفلت حسن الجوار والمعاملة وهو ينطوى على تأمين كبير

للمدينة لأنه يحرم قريشًا من الاعتماد على هذه القبائل أو محالفتها أو إتخاذها «قاعدة» للعدوان على المدينة .

كفاءة أجهزة المعلومات والأمن :

وثبت خلال تلك الفترة أن للمسلمين أجهزة للمعلومات والأمن على درجة عالية من الكفاءة ، تتمثل فى أمرين ، الأمر الأول شبكة من العيون والأرصاد منتشرة فى أنحاء شبه الجزيرة ، لإبلاغ الرسول ﷺ بالمعلومات عن نوايا أعدائه وحركاتهم ، فقد علم ﷺ من عمه العباس فى مكة بتجهيز قريش لمهاجمته قبل غزوة أحد وغزوة الخندق ، وكان الدليل الناصع على كفاءة أجهزة المعلومات هذه أن المسلمين «لم يؤخذوا على غرة أبدًا» ، فشكلت بذلك مصدر أمن مستمر يكون له دور فعال فى تأمين حركة المسلمين وحرمان أعدائهم من مباغتتهم .

ثم نضيف إلى أجهزة المعلومات ، جهاز الأمن الذى نجح فى المحافظة على أسرار المسلمين وحرمان العدو من كشفها ، وواقعة منع رسالة حاطب ابن أبى بلتعة من أن تصل إلى قريش قبل غزوة الفتح خير ما يذكر دليلاً على ذلك ، هذا بالإضافة إلى ما كان لدى المسلمين من وعى الأمن والمحافظة على الأسرار .

تنفيذ القرار :

لقد كان فتح مكة بطبيعة الحال هو قمة الأعمال التنفيذية لقرار انتزاع المبادأة ، باعتبار أن مكة هى الهدف الرئيسى ، لكن الفتح لم يقع إلا فى

ن من السنة الثامنة للهجرة أى بعد صدور القرار بسنوات ثلاث ، فما هو السر فى هذا ؟ الواقع أن دراسة أحداث تلك الفترة من فتدق إلى ما قبل الفتح تكشف عن مخطط بالغ الدقة والإحكام لطريق تمامًا لسير المسلمين إلى هدفهم الرئيسى مكة ، كما أنها تبرز ًا عظيمًا يعلم المسلمين أن يبتعدوا عن العمل المتسرع أو غير ، وأن تكون خطواتهم نحو أهدافهم محسوبة بكل الدقة والإحكام .

يلفت نظر الباحث المدقق أن الغالبية العظمى لسرايا القتال بعثت لك الفترة (أكثر من ثلاثة أرباع مجموع عدد السرايا) ، كما أن ﷺ قاد فى تلك الفترة خمس غزوات هى بنى قريظة وبنى ى قرد والحديبية وخيبر .

الأمن فى المنطقة الشمالية :

ث هذا العدد الكبير من السرايا فكان لتأمين المنطقة الشمالية د الشام ، والعراق ، والسيطرة على القبائل العربية فى تلك المنطقة ن ، وبنى كلاب ، وبنى مرة وبنى عوال وبنى عبد بن ثعلبة ، وبنى سليم ، وبنى الملوح وجهينة ، والقبائل التى عاونت الروم مين .

على اليهود عسكريا :

زوات فقد قضى الرسول ﷺ على اليهود عسكريًا بغزوهم بظة وخيبر .

لقد فتح اليهود – بنقضهم العهد – «جبهة ثانية» ضد المسلمين عليهم أن يواجهوها بالردع الذى تستحقه ، وكانت غزوة خيبر ضد القاضية ، إذ كانت المعقل الرئيسى لليهود فى شبه الجزيرة ، وكا سبعة حصون تكتنفها البساتين ، وكان أهلها أقوياء مسلحين اس فى الدفاع إذ كانوا يعلمون علم اليقين أن إندحارهم معناه القضاء ا على بنى إسرائيل فى شبه الجزيرة .

وهكذا أمن الرسول القائد ﷺ – بسقوط خيبر – بأس اليهود بأنهم لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة ، وبأنه يستطيع بعد ذلك أن جنوبًا نحو هدفه الرئيسى .

زيادة قوة الجيش ورفع كفاءته القتالية :

ولقد أتاحت غزوة الحديبية قيام هدنة أتاحت للمسلمين أن يزي حجم الجيش إلى درجة لم يكونوا بالغيها من قبل ، يؤكد ذلك قوة الجيش فى غزوة الخندق بقوته فى الفتح ، ففى الخندق كان ثلاثة آلاف ، وفى الفتح كانت عشرة آلاف ، وتلك قفزة كبيرة قصير نسبيًا .

وارتفعت كفاءة الجيش القتالية إلى أقصى حد ، بعد أن بلغ من عمليات القتال منذ بدأ الصراع فى السنة الثانية للهجرة إلى الفتح قرابة ستين عملية ، قاد منها الرسول ﷺ أربعا وعشرين وقاد أصحابه ما بقى منها ، ومارس المسلمون فى هذه العمليات كا

القتال من دفاع وهجوم ومطاردة وإغارات ، وقتال فى القرى ، وحصار المواقع الحصينة ، وغيرها ، كما أصبح للجيش عدد كبير من القادة الأكفاء القادرين على قيادة العمليات المستقلة .

إضعاف إرادة قريش القتالية :

وأصيبت إرادة قريش القتالية بالضعف نتيجة لعدة عوامل نذكر منها :

- تجريدها من الحلفاء وخاصة اليهود بعد القضاء عليهم عسكريًا .
- انفتاح المجال أمام الرسول ﷺ - بعد الحديبية - لمخالفة القبائل التى لم تكن مطمئنة إلى محالفته لقوة قريش لوجود الكعبة فى مكة مما أضعف شوكة قريش .
- انتشار الإسلام جعل جانبًا من قريش يدين بالإسلام وجانبًا آخر باقيًا على الشرك فأصبح من المستحيل أن «تجتمع كلمتها» على حرب المسلمين .

أغلى الدروس :

وهكذا أصدر الرسول ﷺ قراره التاريخى بانتزاع المبادأة - فى الوقت المناسب - من يد أعدائه ، وانتقل بالمسلمين من نطاق رد الفعل إلى نطاق الفعل فى غير اندفاع أو مجازفة ، بل بتخطيط سليم ، وخطوات محسوبة ،

واضعًا فى إعتباره كل العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ، ثمّ سار نحو هدفه الرئيسى فحققه على أكمل ما يكون التحقيق ، وجنى ثمرة الأخذ بالأسباب والإعداد والاستعداد ، واثقًا - منذ البداية - من معية الله ، شاكرًا لربه ومسبحًا بحمده على النصر والفتح ورؤية الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا..